The Lebanon of our Dreams

- Name: Tia-Maria
- Surname: Nader
- Institutional affiliation: Saint Georges University of Beirut.
  -First year information technology student.
- Chosen language: Arabic.

Personal email: nadertiamaria@gmail.com
Academic email: 202200434@sgub.edu.lb

بالنسبة لفرويد، يشتق الحلم من مجموعة أفكار واحتياجات راكنة في أعمق مكنونات الإنسان دون أن يدرك الحالم بأنّه يُريد تلك التي تُدعى أحلام. ولكن هل كل ما نحلم به لا نُدركه؟ أعتقد أنَّ هذه المقولة تستثني بعض الأشخاص وخاصةً من حمل منهم هويّة الأرزة الخضراء. فكيف يُستثنوا من هذا التعريف هو موضوعنا اليوم.

إن كان الحلم علامة نومٍ فأنا غارقة بالنّوم وإن كان الشّوق علامة حبٍّ فأنا أحترق جمراً بحبّ لبنان، فهو حلمي وعشقي وعزّتي. أحلم أن أكبر بلبنان يحميني، لا يحتل ولا مُحتَل و من الأهم ألّا يحتال شعبه على بعضه البعض فمن المُحزن أن يُسرَق بيت أبٍ لا يهمّه إلّا مصلحة أولاده وقد نفى نفسه لهم ومِن العار أن يكون السارق هو ابنه أو ابنته فيُفضّل أن يُسرق من شخصٍ غريبٍ على أن يكون سندة ظهره هو من طعن به وغدره. أحلم بسلامٍ وأمانٍ فنحن شعبٌ لا يرهب شيئًا و لو رُمِيَ مع ملاك الموت في معركة، نرى الملاك مُنهزم وإبن لبنان يأبى ترك الحلبة مُنكسر. فإن كان للملاك جانحين فاللبناني ١٠٤٥٢ جانح . أحلم ببلدٍ لا طائفية ولا دين فيه يفرّق أخاً عن أخيه، بلدٍ لا يقرع أجراس الكنيسة إلّا من تركعُ ركبتيه على الأرض و يقول الله أكبر وإذ يكبر قلب الوطن، بلدٍ تعتاد أعين أطفالنا على هلالٍ يُكمله صليباً وتتلذّذ أذناهم على تناغم صوت الآذان والتراتيل

المسيحية. أحلم ببلدٍ يجمع الفقير والغنيّ على طاولة زهرٍ تلعلعُ أغاني فيروز منها، فعِند سماع صوت سفيرة النجوم تستقيل العصافير زقزقتها في الصباح وتركع الشمس منحنية لعرش الطرب اللبناني. كنت أحلم بأرضٍ سحرية يمكنني أن أزور جبالًا مكسوّة بلباس الطهارة الأبيض في الصباح وأسهر على بحرٍ تلمع أمواجه كاللؤلؤ في الليل وعندما استيقظت من حلمي اكتشفت أنّني لست نائمة بل غارقة بنهر الحب و الغرام بلبنان. أحلم بأن أسمع بثورة الأهالي على شبابهم لمنعهم من السهر والسفر على أن يثور الشباب لإطلاق سراح ذويهم. أحلم بألّا تبكي أمٌّ حرقةً على حملها في انفجارٍ جمع السماء بالأرض فكان يسحب من روح الناس حياة أكثر ممّا يسحب شبح الموت أرواحاً ليلقيها في العالم الآخر. أحلم بأطفالٍ يتأمّلون السّماء الجميلة في الصيف ولا يرون أرواحاً تنوح وتفتّش على أجسادها الضائعة و أجساداً سُلِبت منها نفسُها تُبكي حرقةً على أمهاتهم تلك من لا يعلمن بانتقال أبنائهنّ إلى الفردوس. أحلم ببلدٍ لا حرب تبكي عين أبًا فصرخة وجعه تفيق الميت ليشعر بآلامه. أحلم بألّا أُجبر أن أترك حبيبي، أهجره وأخون قلباً لا يزال ينبض حبًّا لوطني. إن كان لبنان شمساً شارقةً تحرق كل من ينظر إليها، فلتحترق عدسات عينيَّ ولا يُحجب لبنان عنّي، فأن أصبح عمياء أفضل بكثير من أن أكون ناكرة الأصل، فالتراب الذي خشّن أناملي و قوّى عظامي لا يمكن أن أرمي ماضيّي و أذهب لأبني مستقبلًا بعيداً عنه.

أحلم بألّا ينام طفلاً باكياً على معدة يصفّر صوت الجوع منها، ألّا يعمل من لا يعرف قلبه الإحتيال فيقع بين أيدي الزعران. أحلم بألّا ترتجف يد طفلٍ لم يحالفه الحظ إذ وُلِد فقيراً عارياً من حقوقه، ألّا يظلمه ريح البرد القارس في ليالي كانون الداكنة ولا تحرقه شمس آب المُلهبة بألسنة نار ،ألّا يركض خائفاً في اللّيل و ألّا ينظر بحرقة إلى باص المدرسة التي حُرِمَ منها. أحلم ألّا يحتلّ الألم قلباً بريئاً فهذا ليس حلمًا بل كابوس مرعب.

أجمل ما قيل عن لبنان أنه في طيّات بيروت يسكن السلام، و في جبال بعلبك يعيش الفرح، و على شواطئ صيدا يرقص الأمل، فكيف لا تكونين لبنان سيدة الجمال؟ و لكن هل بقيَ أمل يتمسّك به شعبنا؟ ظليت أبحث عن مصدر الفرح لأعيش معه و عندما عرفت أنّه في بعلبك احترق قلبي كالرّماد فحلمي موجود بنفس البلد الذي أركن في شوارعه و من المستحيل الوصول إليه إذ الوقود قد يكلّفني كلّ ما أملك.

لطالما حلِمت كل ابنة أن تركض وتشتري أبهى الهدايا لمن حملها لتسعة اشهر ولكن في تلك الأيّام الغدّارة نهرع لشراء آخر الأنفاس ، إن كانت الجنّة تحت رجليّ إمّي ففي لبنان جهنّم تفتح أبوابها وتترك الشّر يغيّر مقاييس القدر.

نعم نحن شعب تحدّى كل ما قيل فنحن لا نحلم بما لا ندرك بل نحلم بما لا يدركه شعوباً أخرى فنحن لا نطلب الأعالي لنسهر الليالي فكل مطلبنا هو بلدٌ آمنٌ لا

نسهر لنحمي نفسنا من نفسنا، بلد لا يجوّع شعبه لدرجة الموت. نحلم بألّا يرى طفلاً أباه مشنوقًا مقتولًا فيذهب ليثور وينتقم لحصر دمائه فيكتشف في آخر المطاف أنّ أباه قتل نفسه بنفسه بسبب وضعٍ مزري ظلم الجميع.

مهما كتبنا و مهما بكينا ومهما شقينا سيبقى الحلمُ حلمًا إن لم تتحرّك تلك المشاعر المجمّدة المتبعثرة في ذلك القلب الذي تحوّل إلى صخرة لا حياة ولا قوة و لا نبض فيها. إن لم نثور ونعبّر عن غضبنا فلا يمكن أن تتغير أحوالنا فمن رحم الأوجاع يولد التغيير.

أحلم بألّا تُقتل أحبابي و تُدفن روحي معهم ،كفانا ظلمٌ على هذه الأرض، ففي بعض الأحيان أشعر وكأنّ من يظلم ليس فقط لا يملك رحمة في قلبه بل أيضاً لا يرهب ربّنا فإن ظنّ أنَّ الحساب هو ما لم يناله في لبنان، بلد لا حسيب ولا رقيب فهنالك من لا تُغمَض عينيه في السّماء مُنتظراً يوم الدّينونة وعندها نسمع صرير الأسنان وتتحقّق العدالة.

آه لو يمكن للكلام أن يعبّر عن كل مشاعري تجاه لبنان فلخلق لي الله خمسة أفواه، فم لأصرخ و أثور، فم لأبكي و أصلّي على دم شهداء بلدي ، فم لأحب و أتغزّل في لبنان، فم لأترجى الله أن يُرجع من ترك البيت و هاجر ، و فم لأعلم أجيال أولاد أولادي نشيدي الوطني. و نعم، نشيدي أنا فمن يسألني عن إسمي جوابي إنني لبنانية.

ما أجمل الأحلام و ما أبشع الحقيقة ففي الحلم أعلم بأنّ ما يحصل حولي هو ما أتمنى عيشه و ما تتوق روحي اليه ولكن عند رجوعنا الى أرض الواقع نكتشف أن الحقيقة هي ما جُبِرنا عيشه دون وسيلة خروج منه حتى ولو تفتت روحنا حنين لعالم من صنع الخيال. أحلم بألّا أحلم فمن حقّي كابن لبنان ، رأسي بين نجوم السماء و رجليَّ يتغلغلوا بين موجات البحر الأبيض المتوسط ، أن أعيش في جنّة على الأرض و ليس أن أتمنّى لو يمكن لله إسترجاعي أنا، مخلوقته الضعيفة، المنكسرة و المشتاقة لوطنٍ لم أتركه قط.

أتكلّم وكأن لبنان حبيباً سابقاً هجرني و ترك لي قلباً منفطراً ، بل أتمنّى لو كان لبنان رجلاً قاسياً تاركاً ورائه امرأة خاضعة له، فيمكن للإنسان ألف بديل و لكن ما يبدّل وطني؟ ما يحضنني و يأويني؟ ماذا أكتب على هويّتي إن كانت هويّتي أنت؟ أنت يا لبنان يا قطعة من السماء. أنا للبنان و من لبنان و لبنان، ففي بعض الأحيان أشعر أنّني لست الوحيدة التي وجدت مسكناً في لبنان بل أجده ساكناً صامتاً مختبئاً هو أيضاً بين طيّات ضلوعي يتناغم و يتراقص مع دقّات نبض قلبي.

خُلِق الإنسان وفي دمه الطمع، لا يكتفي بما يملك، كنّا في أحشاء تلك من تدعى أم، تلك من تشقى لتأمين حاجاتنا، و كنّا نحلم بالخروج والتحرّر ، بالإستقلالية و الوحدة، كنّا نحلم أن نكبر وننضج و نأخذ كلّ ما نحتاج إليه ممّا تهبنا إيّاه أمّنا لكي

نتركها بعد تسعة أشهر. طالما حلمنا بالخروج من قلبها مع العلم أنّنا من دمائها نشرب من لحمها نتغذى ومن روحها نروي روحنا، تلك الروح الضائعة، التي لا تدري ما يخبّئ الخارج من أبواب مجهولة، ولا زلنا مصرّين على الخروج وعند ارتجالنا من مركب الحياة الأساسي نندم وليت الندم يفيد فلا بيقى معنا إلّا ضميرنا المؤَنّب و روحنا المُهلكة البعيدة عن رائحة أمّي. وكذلك الأمر الآن، نحلم أن نكبر ونستقل و نهجر أمّنا لبنان، ولكن المؤسف أنّنا نحلم بأبشع كوابيسنا، نحلم بحقيقة الوحدة في الهجرة. فالهجرة أصعب بكثير ممّا يظنّه شباب اليوم، فإن نُقِلَ جسدي إلى بلدٍ آخر، من وكيف سأنقل روحي؟

عَزَمَتْ الشيوخ على اقناعنا بأنّنا لم نعيش ذرّة ممّا عاشه جيلهم ولأوّل مرّة سأقول أنّني أتمنّى لو كنت عجوزة في هذه الأيّام وقد عشتُ كل أيّامي و زهّرت ورود شبابي في تلك الأيّام، أيّام العزّ والكرم، أيّام الحب والأخوّة. أيّام كانت تُسمَع ضحكات الأطفال في الأحياء و الشوارع و رائحة القهوة الطازجة تفوح من بيوت النساء و الجيران. أيّام كان الشجار لا ينتهي إلّا بصلحةٍ وقبلة جبين مسك الختام و ليس كما تنتهي حكايات الحاضر، لا يشبعوا إلّا ليروا ظمأهم للدماء والدمار.

أحلم بالتحكّم بالزّمن لأرجِع تلك اللّيالي وأُحيي قلب لبنان الذي لا يزال يُناطح الفساد ويروي عطش شعبه للحياة.

إن كانت الأحلام من صنع الإنسان فلبنان أجمل تحفة يمكن للإنسان تخيّلها. نحن شعب نحلم بما ندرك، ولا نريد إلّا لبنان سليماً، شامخاً ومتحديّاً كل المشاكل داركاً بشعبه الحنون الذي سيبقى داعماً له. فإن كانت الأرزة رمز الصمود، فنحن محمية أرز كاملة. لا ننحني إلّا عند رفرفة علم لبنان الذي تفوح رائحة العزة والكرامة منه. فإن ظنّ الأجمعين أن حجم لبنان يحدّد قوته فليعلم أنّ حلمي للبنان يلفّ العالم ٤ مليون مرة على عدد كل نسمة من نسمات وطني. عشتم وعاش لبنان.